

الفكر المنهجي عند الخطيب البغدادي (ت 463هـ)

من خلال مصنفاته

The Methodological Thought of Al-Khatib Al-Baghdadi (d. 463 AH) through his works

د. فتيحة محمد بوشعالة¹

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

Fatiha.bouchaala@gmail.com

تاريخ الوصول 2022/03/31 القبول 2022/04/28 النشر على الخط 2022/05/10

Received 31/03/2022 Accepted 28/04/2022 Published online 10/05/2022

ملخص:

تتمحور فكرة هذا المقال حول الوقوف على الحس النقدي والفكر المنهجي عند الخطيب البغدادي من خلال مصنفاته، ومدى إحاطته بعلوم الشريعة عموماً وعلوم الحديث خصوصاً، بالإضافة إلى علمه واستيعابه لواقعه من الناحية العلمية ومن الناحية الفكرية، وإدراكه لحجم المخاطر الفكرية التي تهدد الأمة المسلمة، حيث برز كل ذلك في مصنفاته المتنوعة والدقيقة منهجاً ومحتوى، والتي كانت منطلقاً ومرجعاً لكل من جاء بعده، بنوا عليها علومهم.

فما هي معالم الفكر المنهجي عند الخطيب البغدادي؟ وما هي جوانب هذا الفكر؟

هذا ما سنجيب عنه في هذا البحث الموسوم بـ "الفكر المنهجي عند الخطيب البغدادي (ت 463 هـ)، من خلال مصنفاته).

الكلمات المفتاحية: الفكر - المنهجي - الخطيب البغدادي - مصنفاته.

Abstract:

The idea of this article revolves around the apprehension of the scientific method, and the methodological thought of Al-Khatib Al-Baghdadi through his works and the extent of his knowledge of Sharia sciences in general and Hadith sciences in particular, in addition to his work and his understanding of his reality from the scientific and intellectual point of view and his awareness of the size of the intellectual risks that threaten The Muslim Ummah, as all of this appeared in his various and accurate works, method and content, which were a starting point and reference for all who came after him, who built their sciences on it.

What are the features of the methodological thought of Al-Khatib Al-Baghdadi? And what are the aspects of this thought? This is what we will answer in this research, under the title of "The Methodological Thought of Al-Khatib Al-Baghdadi (d. 463 AH) through his works".

Keywords: Methodological - Thought - Al-Khatib Al-Baghdadi – works.

¹ - المؤلف المراسل: فتيحة محمد بوشعالة
البريد الإلكتروني: Fatiha.bouchaala@gmail.com

¹ - المؤلف المراسل: فتيحة محمد بوشعالة

1. مقدمة:

تعرض تراثنا الإسلامي، خاصة الحديثي لكثير من النقد، قديما وحديثا، قديما من طرف الفرق المناوئة أهل السنة، أمثال المعتزلة والرافضة، وحديثا من طرف الاستشراق والحداثة، وكثيرا ما ركزوا حول مناهج علوم الشرع، فنجد جل المستشرقين اتهموا المحدثين بقلة اهتمامهم بالجانب المنهجي، وإهمالهم لأصول البحث العلمي، أمثال جولد زيهر، روبنسون، مكسيم وشاخت وجوينبول وغيرهم، يقول جولد زيهر مثالا: "ولم يستطع المسلمون أنفسهم أن يخفوا هذا الخطر - أي خطر الوضع في الحديث - ، ومن أجل هذا وضع العلماء علماً خاصاً له قيمته وهو علم نقد الحديث، لكي يفرقوا بين الصحيح وغير الصحيح من الأحاديث، إذا أعوزهم التوفيق بين الأقوال المتناقضة .

ومن السهل أن يفهم أن وجهات نظرهم في النقد ليست كوجهات النظر عندنا، تلك التي نجد لها مجالاً كبيراً في النظر في تلك الأحاديث التي اعتبرها النقد الإسلامي صحيحة غير مشكوك فيها، ووقف حيالها لا يحرك ساكناً. ولقد كان من نتائج هذه الأعمال النقدية الاعتراف بالكتب الستة أصولاً، وكان ذلك في القرن السابع الهجري، فقد جمع فيها علماء من رجال القرن الثالث الهجري أنواعاً من الأحاديث كانت مبعثرة رأوها أحاديث صحيحة. وقد أصبحت هذه الكتب مراجع مجزوماً بها لسنة النبي، ويعتبر في المقام الأول منها الصحيحان¹.

ونجد منهم بعض المنصفين ممن شهد لمنهج علمائنا بالإنصاف. ومثال ذلك ما شهد به شيخ المؤرخين أسد رستم² حيث قال: "والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ في أوروبا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منها [يقصد مخطوطة كتاب (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض (455هـ)] في بعض نواحيها، وذلك على الرغم من مرور سبعة قرون عليها، فإن ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج... يضاهي ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الفرنجة في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وبلاد الإنجليز.... والواقع أن المثنودولوجيا الغربية التي تظهر اليوم لأول مرة بثوب عربي، ليست غريبة عن مصطلح الحديث، بل تمت إليه بصلة قوية، فالتاريخ دراية أولاً ثم رواية، كما أن الحديث دراية ورواية. وبعض القواعد التي وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة في الحديث، تتفق في جوهرها وبعض الأنظمة التي أقرها علماء أوروبا فيما بعد في بناء علم المثنودولوجيا، ولو أن مؤرخي أوروبا في العصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين، لما تأخروا في تأسيس علم المثنودولوجيا حتى أواخر القرن الماضي.

وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب، فنؤكد لهم بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل، نشأ وترعرع في بلادنا، ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل بأسسه وقواعده.³

¹ - مقاييس نقد متون السنة، مسفر غرم الله الدميني، الرياض، الطبعة الأولى، 1984م، 238/ 239.

² - هو المؤرخ اللبناني المسيحي، أسد رستم (1897-1965م) صاحب كتاب (مصطلح التاريخ)، والذي اقتبس عنوانه هذا من مصطلح الحديث، ويعتبر أول مؤرخ عربي وضع كتاب في منهج البحث التاريخي، ودرس على كبار المستشرقين في أمريكا وأوروبا. انظر ترجمته في مقدمة كتابه (مصطلح التاريخ).

³ - مصطلح التاريخ، أسد رستم، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015م، ص 47-48 بتصرف.

فجاء هذا البحث ليقدم صورة جلية عن نموذج للفكر المنهجي عند علمائنا، وكيف أسسوا لقواعد البحث العلمي، ومارسوا التفكير المنهجي في مختلف العلوم.

والموسوم ب: (الفكر المنهجي عند الخطيب البغدادي (ت463هـ)، من خلال مؤلفاته)

ليجيب عن إشكالية مفادها: ما هي معالم الفكر المنهجي عند الخطيب البغدادي؟ وما هي جوانب هذا الفكر؟

وجاءت صياغة هذا البحث كالآتي: مقدمة

المبحث الأول: شخصية الخطيب الفكرية والعلمية

المبحث الثاني: رصيد الخطيب العلمي والفكري.

المبحث الثالث: أثره في علوم الحديث

المبحث الرابع: معالم فكره المنهجي.

خاتمة.

2. شخصية الخطيب الفكرية والعلمية

1.2 . سيرته:

أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي (392/463هـ) محدث بغداد وفتيها وأصوليها ومؤرخها بلا منازع، برز في الحديث وعلومه وبرع فيه وملاّت مصنفاته الحديثية الآفاق، وصارت عمدة لمن جاء بعده، كما علا كعبه في الفقه وأصوله، وألف في ذلك ودون، وحاز قصب السبق في التاريخ، ويكفيه تاريخ بغداد شاهدا على علو شأنه فيه، أديب، لم يخلو رصيده المعرفي من التصنيف في الأدب، مربي ومؤدب نال الدرجات العليا في أصول التربية والتعليم، تنظيرا وممارسة، ويكفيه مصنف (الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع) شهادة على تمكنه من ذلك. ويكفيه شرفا أن مارس ذلك في جامع المنصور، وحدث بجوامع بغداد.¹

لم يكن الخطيب من العلماء المنكفيين على التصنيف والتأليف والتحديث بمعزل عن واقعه ومجتمعه وما يدور حوله من الأحداث الكبرى، السياسية والعلمية والحركات الفكرية المعادية لأهل السنة.

بل كان على اطلاع ودراية بما يجري حوله، محيطا وملما بكل الصراعات الطائفية والفكرية؛ وكان لذلك أثر كبير في تنوع مصنفاته، والغاية من تأليفها، والباعث على التأليف، حيث ساهم بقدر كبير في دحض شبهات المناوئين بأهل السنة، وفي تثبيت دعائم العلوم الشرعية المؤصلة وفق الكتاب والسنة، خاصة علوم الحديث الذي برع فيه، ومعظم مؤلفاته حوله.

2.2 ملامح شخصيته

والمطلع على مقدمات مصنفاته يللمس هذا الوعي الكبير وبعد النظر الذي تميز به هذا العالم الجليل، حيث جاء مثلا في مقدمة كتاب (الكفاية في علم الرواية) كلامه عن أسباب تجرؤ أهل الأهواء على السنة، وتمييز كل فريق بمواصفات تنم عن دقة نظره وقوة تحليله للواقع العلمي السائد: " وقد استفرغت طائفة من أهل زماننا وسعها في كتب الأحاديث والمثابرة على جمعها من غير أن

¹ - انظر ترجمته في: البداية والنهاية، ابن كثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2001م، 101/12. تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1998م، 221/3، طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تح محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلوة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1413هـ، 29/4.

يسلكوا مسلك المتقدمين، وينظروا نظر السلف الماضين في حال الراوي والمروي، وتميز سبيل المرذول والرضي، واستنباط ما في السنن من الأحكام، وإثارة المستودع فيها من الفقه بالحلال والحرام، بل قنعوا من الحديث باسمه، واقتصروا على كتبه في الصحف ورسمه، فهم أغمار، وحملة أسفار... يحملون عمن لا تثبت عدالته، ويسمعون ممن لا تجوز أمانته، ويروون عمن لا يعرفون صحة حديثه، ولا يتيقن ثبوت مسموعه... فجرّ هذا الفعل منهم الوقوعة في سلف العلماء، وسهل طريق الطعن عليهم لأهل البدع والأهواء، حتى ذم الحديث وأهله بعض من ارتسم بالفتوى في الدين، ورأى عند إعجابه بنفسه أنه أحد الأئمة المجتهدين، بصدوفه عن الآثار إلى الرأي المرذول، وتحكمه في الدين باجتهاده المعلول، وذلك منه غاية الجهل ونهاية التقصير عن مرتبة الفضل، ينتسب إلى قوم تهيؤوا كد الطلب ومعاناة ما فيه من المشقة والنصب، وأعتيهم الأحاديث أن يحفظوها، واختلفت عليهم الأسانيد فلم يضبطوها، فجانبوا ما استثقلوا، وعادوا ما جهلوا، وآثروا الدعة واستلذوا الراحة، ثم تصدروا في المجالس قبل الحين الذي يستحقونه، وأخذوا أنفسهم بالطعن على العلم الذي لا يحسنونه، إن تعاطى أحدهم رواية حديث فمن صحف ابتاعها، كفي مئونة جمعها من غير سماع لها ولا معرفة بحال ناقلها، وإن حفظ شيئاً منها خلط الغث بالسمين، وألحق الصحيح بالسقيم، وإن قلب عليه إسناد خبر أو سئل عن علة تتعلق بأثر؛ تخير واختلط وعبث بلحيته وامتحط، تورية عن مستور جهالته، فهو كالخمار في طاحونته، ثم رأى ممن يحفظ الحديث ويعانيه ما ليس في وسعه الجريان فيه، فلجأ إلى الازدراء بفرسانه، واعتصم بالطعن على الراكضين في ميدانه.¹

حيث شرح الخطيب الواقع العلمي السائد، وبين أن هناك طائفتين ممن يتصدرون مجالس العلم، طائفة من أهل الحديث صادقة في طلبها وفي جمعها للحديث ولكنها جانبت المنهج الصحيح الذي وضعه المتقدمون من أهل النقد، فكانت كحاطب ليل، تجمع الغث والسمين من الروايات دون تمحيص ولا تدقيق، فأعطت الفرصة للطعن في أهل الحديث وأهل السنة ككل من طرف المتربصين من متفقيهم ومن أهل البدع الذين يتصيدون أخطاء علماء الحديث للوقوعة فيهم، وهم في الأساس لا علم لهم.

ثم بين الطائفة الثابتة على المنهج القويم في حفظ الدين، وأنه يتعين على كل من أراد التصدر لهذا الشأن اتباع طريقهم وعدم الحياد عنه، فقال: "وأما المحققون فيه المتخصصون به فهم الأئمة العلماء، والسادة الفهماء، أهل الفضل والفضيلة والمرتبة الرفيعة، حفظوا على الأمة أحكام الرسول، وأخبروا عن أنباء التنزيل، وأثبتوا ناسخه ومنسوخه، وميزوا محكمه ومتشابهه، ودونوا أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله، وضبطوا على اختلاف الأمور أحواله.... ولولا عناية أصحاب الحديث بضبط السنن وجمعها واستنباطها من معادنها والنظر في طرقها، لبطلت الشريعة، وتعطلت أحكامها، إذ كانت مستخرجة من الآثار المحفوظة، ومستفادة من السنن المنقولة...."

والواجب على من خصه الله تعالى بهذه المرتبة، وبلغه إلى هذه المنزلة، أن يذل مجهوده في تتبع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته، وطلبها من مظانها، وحملها عن أهلها، والتفقه بها والنظر في أحكامها، والبحث عن معانيها والتأدب بآدابها، ويصدف عما يقل نفعه وتبعد فائدته، من طلب الشواذ والمنكرات، وتتبع الأباطيل والموضوعات، ويوفي الحديث حقه من الدراسة والحفظ والتهديب والضبط...."

ويبين في مقدمة كتاب (شرف أصحاب الحديث) وقوفه على حال الحركة العلمية والفكرية في زمانه، حيث كان سيفاً على المعتزلة والمتكلمين المنحرفين عن الحق، فقال: "فقد وقفنا على ما ذكرتم من عيب المبتدعة لأهل السنن والآثار وطعنهم على من شغل

¹ - الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م، 18-19.

نفسه بسماع الأحاديث وحفظ لأخبار وتكذيبهم بصحيح ما نقله إلى الأمة الأئمة الصادقون واستهزأهم بأهل الحق فيما وضعه عليهم الملحدون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون وليس ذاك عجيباً من متبعي الهوى ومن أضلهم الله عن سلوك سبيل الهدى ومن واضح شأنهم الدال على خذلانهم، صدوفهم عن النظر في أحكام القرآن وتركهم الحجاج بآياته الواضحة البرهان واطراحهم السنن من ورائهم وتحكمهم في الدين بآرائهم فالحدث منهم منهوم بالغزل وذو السن مفتون بالكلام والجدل.... ثم هو يفتخر على العوام بذهاب عمره في درس الكلام ويرى جميعهم ضالين سواه ويعتقد أن ليس ينجو إلا إياه لخروجه زعم عن حد التقليد وانتسابه إلى القول بالعدل والتوحيد وتوحيده إذا اعتبر كان شركاً وإلحاداً لأنه يجعل الله من خلقه شركاء وأندادا وعدله عدول عن نهج الصواب إلى خلاف محكم السنة والكتاب...¹

3. رصيد الخطيب العلمي والفكري.

شخصية الخطيب الفكرية والعلمية، كانت مبنية على علم رصين وتحصيل معرفي متنوع، فالمطلع على شيوخه وعلى رحلاته ومصنفاته، يدرك أن الرجل تعددت مشاربه العلمية ومصادره الفكرية وأثرت رحلاته زاده المعرفي، حيث انعكس كل ذلك على نوعية مصنفاته، ومكانته العلمية.

أول ما بدأ به الخطيب في الطلب حفظ القرآن وتعلم وجوه القراءات، وفي سن الحادية عشرة توجه لطلب الحديث في جامع بغداد، ثم اختلف إلى الفقهاء، فأخذ عن أبي حامد الإسفراييني الذي انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي، ولم يقتصر على شيخ واحد في الفقه، قال عنه السبكي: " وكان من كبار الفقهاء تفقه على أبي الحسن بن المحاملي والقاضي أبي الطيب الطبري وعلق عنه الخلاف وأبي نصر بن الصباغ، وكان يذهب في الكلام إلى مذهب أبي الحسن الأشعري، وقرأ صحيح البخاري بمكة في خمسة أيام على كريمة المروزية، وأراد الرحلة إلى ابن النحاس إلى مصر قال فاستشرت البرقاني هل أرحل إلى ابن النحاس إلى مصر أو أخرج إلى نيسابور إلى أصحاب الأصم فقال إنك إن خرجت إلى مصر إنما تخرج إلى رجل واحد إن فاتك ضاعت رحلتك وإن خرجت إلى نيسابور ففيها جماعة إن فاتك واحد أدركت من بقي فخرجت إلى نيسابور...²

وتعددت رحلاته في طلب الحديث، فرحل إلى الكوفة، البصرة، نيسابور، الري، همدان، الدينور، الجبال، مكة المكرمة، دمشق، صور، المدينة المنورة، القدس. وفي الأخير استقر في بغداد.

"يزيد شيوخه على الألف، بينهم عدد من أئمة الحديث وكبار الفقهاء المشهورين، كأبي نعيم، والبرقاني والصوري وابن زرقويه، المحاملي، أبو الحسن البزاز، ومن أقرانه: ابن ماكولا...³

¹ - شرف أصحاب الحديث، الخطيب البغدادي، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996م، ص 20-21 بتصرف.

² - طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تح: محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1412هـ، 30 / 4

³ - الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث، محمود الطحان، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م، ص 68، بتصرف.

فلم يكتف الخطيب البغدادي بعلم واحد، بل كان ملماً بعلوم الشريعة ككل، ولكن النصيب الأوفر كان لعلوم الحديث، وهذا ما تنبئ عنه مصنفاته. ومما دفعه إلى ذلك التنوع، طموحه أولاً ونهمه العلمي ثم متطلبات المرحلة الصعبة التي كانت تعيشها الأمة في لك العصر، حيث كانت تموج بها الفتن الفكرية من كل جانب لكثرة الفرق والطوائف.

" لقد كان الخطيب أحد الأئمة المكثرين في التصنيف، المجيدين له البارعين فيه، ولقد اشتهر بتصانيفه تلك، قال فيه الذهبي: (صاحب التصانيف المنتشرة)، ووصفه ابن عساكر بقوله: (أحد الأئمة المشهورين والمصنفين المكثرين)، وشهد له خصمه ابن الجوزي بذلك، فقال: (وصنف الكتب الحسان البعيدة المثل).. ولقد أحصى الأستاذ يوسف العش أسماء كتب الخطيب من الفهارس والمصنفات، فبلغت تسعة وسبعين مصنفاً ما بين صغير وكبير.."¹

نذكر منها: في الحديث

(جزء فيه أحاديث مالك)، (الفوائد المنتخبة الصحاح والغرائب)، (الفصل للوصل المدرج في النقل)، (الكفاية في علم الرواية)، (اقتضاء العلم للعمل)، (تقييد العلم)، (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)، (الرحلة في طلب الحديث)، (شرف أصحاب الحديث)، (تميز المزيد في متصل الأسانيد)، (الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة)، (تلخيص المتشابه في الرسم)، (المتفق والمفترق)، (موضح أوهام الجمع والتفريق).

في التراجم والتاريخ:

(تاريخ بغداد)، (كتاب الوفيات)، (مناقب أحمد بن حنبل).

في الفقه والأصول:

(الفقيه والمتفقه)، (الحيل)، (صلاة التسيح والاختلاف فيها)، (القضاء باليمين مع الشاهد)، (القول في علم النجوم)، (إبطال النكاح بغير ولي)، (مسألة الاحتجاج للشافعي فيما أسند إليه).

في الرقائق:

(المنتخب من الزهد والرقائق).

في الأدب:

(البخلاء)، (التنبية والتوقيف على فضائل الخريف)، (التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم).

وغيرها من المصنفات.²

فألف في الحديث وعلومه بإسهاب وتطرق لجميع فروعها، وفي الفقه وأصوله، في أصول التربية، في الأدب، في الرقائق، وفي التاريخ.

¹ - المرجع السابق، ص 118-119، مختصراً.

² - مختصرة من كتاب الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث، محمود الطحان، ص 122-125.

4. أثر الخطيب البغدادي في علوم الحديث

يعتبر الخطيب البغدادي من الأوائل الذين نظروا لعلوم الحديث، وكما هو معلوم للأول فضل السبق، وكان كتابه (الكفاية) باكورة هذا العمل، حيث جمع فيه كثير من المسائل الحديثية التي تحتاج إلى شرح وتفصيل لطالب علم الحديث، واستدرك ما أغفله غيره، وأعمل حسه الأصولي والنقدي في هذا الكتاب، فتناول مسألة حجية السنة، وكان أول من ذكرها، وكذا مسألة التواتر والآحاد، وإثبات حجية خبر الآحاد في معرض رده على مطاعن المعتزلة والرافضة الذين يقولون برد أحاديث الآحاد، وكذا مسألة الرواية بالمعنى، وفصل فيها، وغيرها من المسائل الحديثية.

وأردفه بكتاب تناول فيه آداب الرواية وآداب طلب العلم وهو (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) فكان كتابه غاية في باهما، حيث قال فيهما ابن حجر: "فمن أول من صنف في ذلك القاضي أبو محمد الرامهرمزي (الحسن بن عبد الرحمن الذي عاش إلى قريب سنة (360) في كتابه (المحدث الفاضل) لكنه لم يستوعب". والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، لكنه لم يهذب ولم يرتب، وتلاه أبو نعيم الأصبهاني فعمل على كتابه مستخرجاً وأبقى أشياء للمتعب. ثم جاء بعدهم الخطيب أبو بكر البغدادي فصنف في قوانين الرواية كتاباً سماه (الكفاية) وفي آدابها كتاباً سماه (الجامع لآداب الشيخ والسامع) وقل فن من فنون الحديث إلا وقد صنف فيه كتاباً مفرداً، فكان كما قال الحافظ أبو بكر بن نقطة: كل من أنصف علم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه..."¹

ويبين عجاج الخطيب، الإمام الفكري للخطيب وبعد نظره في التصنيف، فيتحدث عن فلسفة مصنفات الخطيب قائلاً: "فلسفة مصنفات الخطيب تحقق نظرة بعيدة المدى، لم تقتصر على عصر المؤلف، بل امتدت آثارها عبر الزمان إلى أيامنا هذه، وستبقى شاهداً على فاعلية الإسلام في كل زمان ومكان..."²

وقد تتبع الرجوع إلى الخطيب البغدادي والأخذ من كتبه عند من جاء بعده إلى يومنا هذا فوجدت، أنه لم يخل كتاب من الإشارة إليه رحمه الله بدءاً من القاضي عياض اليحصبي (ت544) إلى يومنا هذا، ووقفت على ما يقارب التسعمائة نقل عنه، وهذا ينم عن مكانة الخطيب في مجال تخصصه، وتمكنه منه، وإبداعه فيه.

5. معالم فكره المنهجي.

يمكننا من خلال مصنفات الخطيب، خاصة المقدمات، ثم المحتوى أن نستشف معالم فكره المنهجي في مختلف العلوم، وقد أجملتها في ما يلي:

- 1- منهجه في الجانب الحديثي:
- 2- منهجه في جانب البحث العلمي
- 3- منهجه في الجانب التربوي
- 4- منهجه في الجانب التاريخي

¹ - النكت على كتاب ابن الصلاح، ابن حجر العسقلاني، تح ربيع بن هادي عمير المدخلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، 1984م. 9/1.

² - مقدمة (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي)، تح محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1996م. 73/1.

1.5 منهجه في الجانب الحديثي:

المطلع على كتب الخطيب في علوم الحديث يقف على تمكن الرجل من فنه، حيث تمتاز بالأصالة في التصنيف، فلم يكن ناقلاً بل مبتكراً، ولذا اعتمد عليه كل من ألف في علوم الحديث من بعده.

ففي كتاب الكفاية مثلاً، تطرق لمواضيع في علوم الحديث لم يذكرها من ألف قبله، وهم الرامهرمزي، الحاكم النيسابوري، وهي مسائل جوهرية، أثبتت حولها كثير من الشبهات، فكان بعد نظر الخطيب دافعاً لتناولها وبيانها حتى تزول الشبهة، ومن ذلك: مسألة حجية السنة، وحجية خبر الآحاد، تفصيله في أقسام الجرح والتعديل، وتفصيله في مسائل الضبط، تطرقه لمسألة الرواية بالمعنى وتفصيله في المحيزين والمناعين من السلف والعلماء،

مسألة التعارض بين الأخبار، وكيفية دفع ذلك.

فكانت مواضيع الكتاب استجابة للواقع العلمي والفكري الذي فرض مثل تلك المواضيع، وكانت رداً علمياً موثقاً لكل الشبهات المثارة.

في حين تناول مواضيع علوم الحديث الأخرى مثل أسماء الرواة، والمبهمات، وشروط الرواية والسماع، والمزيد في متصل الأسانيد، فقد عاجلها في مصنفات مستقلة، مفصلاً القول فيها، وقد سبق ذكرها في مصنفاته.

ومن معالم منهجه الحديثي أيضاً دقة التحري والنقد وحسن التبويب والترتيب، ففي كتاب (الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة) كان عمله منهجياً دقيقاً، سار عليه من أول الكتاب إلى آخره، مثل ما نص عليه في المقدمة، حيث يذكر الحديث الذي فيه الراوي المبهم ثم يذكر بعده حديثاً في إفصاح عن اسم ذلك المبهم، ثم يقيم الحجة على أنه الراوي نفسه الذي جاء مبهماً بالحجة والدليل، وسار على ذلك في كل الكتاب، فقال في المقدمة: "هذا كتاب أوردت فيه أحاديث تشتمل على قصص متضمنة ذكر جماعة من الرجال والنساء أبهمت أسماءهم وكنى عنها، وجاءت في أحاديث أخر محكمة، فجمعت بينهما، وجعلت إثر كل حديث فيه اسم مبهم حديثاً فيه بيانه، ورتبت ذلك على نسق حروف المعجم، والله تعالى أسأل توفيق العمل بطاعته، والسلامة في كل الأمور بمنه ورأفته."¹

ومن منهجه عدم الاكتفاء بجمع الروايات، بل لا بد من التفقه فيها، ثم لا بد من الجمع بين العلم والعمل به، ولذا نجد ألف مع الكفاية، كتب أخرى تنص وتحث على العمل بما تعلمنا، مثل كتاب (اقتضاء العلم للعمل)، (النصيحة لأهل الحديث)، يقول الأستاذ عجاج الخطيب في ذلك: "لقد مهد بكتبه السابقة سبيل الطلب، وحسن معرفة الصحيح من غيره، وحث الطلاب على عدم الاكتفاء بالرواية، بل لا بد من الجمع بينها وبين الدراية، ومعرفة الأحكام.

والاشتغال بطلب العلم لا يكفي، فلا بد من العمل، وإذا بالخطيب يتحفنا بكتابه (اقتضاء العلم للعمل) وهو كتاب نفيس جامع فيما قصد إليه.... وبهذا يحمل الخطيب الجميع مسؤولية التطبيق، فيستقيم السلوك وتصفو النفوس... فيزول التعصب الأعمى...."²

¹ - الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة، الخطيب البغدادي، تح عز الدين علي السيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر الطبعة: الثالثة، 1997م، 3/1.

² - مقدمة كتاب (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي) تح محمد عجاج الخطيب، 71/1-72 بتصرف.

ومن ذلك أيضا حثه على الجمع بين الحديث والفقه وأصوله وعدم الاكتفاء بواحد منها فقط ، لما ينتج عن ذلك من خلل فكري تكون نتائجه وخيمة على طالب العلم وعلى ما سيقدمه لأمتة، حيث قال في مقدمة كتاب (النصيحة لأهل الحديث): " وإنما أسرع ألسنة المخالفين إلى الطعن على المحدثين لجهلهم أصول الفقه وأدلته في ضمن السنن مع عدم معرفتهم بمواضعها فإذا عرف صاحب الحديث بالتفقه خرسست عنه الألسن وعظم محله في الصدور والأعين وخشي من كان عليه يطعن...وروى عن وكيع قوله: يا فتیان تفهموا فقه الحديث فإنکم إن تفهمتم فقه الحديث لم يقهرکم أهل الرأي".¹

ومن ذلك أيضا أنه لم يكتف بالتنظير لعلوم الحديث المختلفة، بل مارس تلك العلوم، من خلال نقد الأحاديث وبيان عللها والجرح والتعديل وتمحيص الرواة وتبيين أحوالهم، وكان ذلك في كتابه (تاريخ بغداد)، وكتاب (الفصل للوصل المدرج في النقل)، (الفوائد المنتخبة الصحاح والغرائب)، (التبيين لأسماء المدلسين)، (تمييز المزيد في متصل المسانيد)، (رفع الارتباب في المقلوب من الأسماء والأنساب)، (موضح أوهم الجمع والتفريق)، وغيرها من المصنفات الحديثية، حيث نلاحظ أنه زاوج بين نقد الأسانيد ونقد المتن، فكان عمله هذا رد على شبهة المستشرقين، القائلة بإهمال المحدثين لنقد المتن.

2.5 منهجه في جانب البحث العلمي:

اتبع الخطيب في مصنفاته مثل باقي علماء المسلمين منهجا دقيقا في مصنفاتهم، سبقوا علماء الغرب الذين زعموا أنهم هم من ابتكر قواعد البحث العلمي، فجد الخطيب في معظم مؤلفاته، يصوغ مقدمته صياغة علمية منهجية دقيقة، فيبدأ بديباجة تخص المنهج الإسلامي وهي حمد الله عز وجل والصلاة على نبيه ﷺ، ثم ذكر دوافع البحث، أسبابه، نقد الجهود السابقة، بيان المنهج الصحيح المتبع، ذكر أهداف البحث، خطة البحث.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في مقدمة كتاب (الكفاية):

بعد ديباجة الحمد:

ذكر توطئة للموضوع فقال: " أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى أنقذ الخلق من ثائرة الجهل، وخلص الورق من زخارف الضلالة بالكتاب الناطق والوحي الصادق، المنزلين على سيد الورى نبينا محمد المصطفى، ثم أوجب النجاة من النار، والبعد عن منزل الذل والخسار، لمن أطاعه في امتثال ما أمر والكف عما عنه نهي وزجر..."

ثم دوافع البحث، فقال: "ولما كان ثابت السنن والآثار وصحاح الأحاديث المنقولة والأخبار ملجأ المسلمين في الأحوال، ومركز المؤمنين في الأعمال، إذ لا قوام للإسلام إلا باستعمالها، ولا ثبات لأمر الدين إلا بانتحالها، وجب الاجتهاد في حفظ أصولها، ولزم الحث على ما عاد بعمارة سبيلها..."

ثم نقد الجهود السابقة في هذا الفن نقدا مفصلا دقيقا ينم عن الإحاطة الشاملة بكل جوانب البحث، مع الالتزام بالموضوعية والإنصاف، فقال: "وقد استفرغت طائفة من أهل زماننا وسعها في كتب الأحاديث والمثابرة على جمعها من غير أن يسلكوا مسلك المتقدمين، وينظروا نظر السلف الماضين في حال الراوي والمروي، وتمييز سبيل المرذول والرضي، واستنباط ما في السنن من الأحكام، وإثارة المستودع فيها من الفقه بالحلال والحرام، بل قنعوا من الحديث باسمه، واقتصروا على كتبه في الصحف ورسمه، فهم أغمار،

¹ - نصيحة أهل الحديث، الخطيب البغدادي، تح عبد الكريم أحمد الوريكات، مكتبة المنار، الزرقاء ط الأولى، 1408هـ. (ص: 41)

وحملة أسفار، قد تحملوا المشاق الشديدة، وسافروا إلى البلدان البعيدة، وهان عليهم الدأب والكلال، واستوطنوا مراكب الحل والارتحال، وبذلوا الأنفس والأموال، وركبوا المخاوف والأهوال، شعث الرؤوس، شحب الألوان، خمض البطون، نواحل الأبدان، يقطعون أوقاتهم بالسير في البلاد لما علا من الإسناد، لا يريدون شيئاً سواه ولا يبتغون إلا إياه، يحملون عمن لا تثبت عدالته، ويسمعون ممن لا تجوز أمانته، ويروون عمن لا يعرفون صحة حديثه، ولا يتيقن ثبوت مسموعه، ويحتجون بمن لا يحسن قراءة صحيفته، ولا يقوم بشيء من شرائط الرواية، ولا يفرق بين السماع والإجازة، ولا يميز بين المسند والمرسل والمقطوع والمتصل، ولا يحفظ اسم شيخه الذي حدثه حتى يستثبته من غيره، ويكتبون عن الفاسق في فعله، المذموم في مذهبه، وعن المبتدع في دينه، المقطوع على فساد اعتقاده، ويرون ذلك جائزاً، والعمل بروايته واجباً، إذا كان السماع ثابتاً والإسناد متقدماً عالياً.."

ثم الأسباب الباعثة على عمله هذا، فقال: " فجزّ هذا الفعل منهم الواقعة في سلف العلماء، وسهل طريق الطعن عليهم لأهل البدع والأهواء، حتى ذم الحديث وأهله بعض من ارتسم بالفتوى في الدين، ورأى عند إعجابه بنفسه أنه أحد الأئمة المجتهدين، بصدوفه عن الآثار إلى الرأي المرذول، وتحكمه في الدين باجتهاده المعلول، وذلك منه غاية الجهل ونهاية التقصير عن مرتبة الفضل، ينتسب إلى قوم تهيؤوا كد الطلب ومعاناة ما فيه من المشقة والنصب، وأعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، واختلفت عليهم الأسانيد فلم يضبطوها، فجانبوا ما استثقلوا، وعادوا ما جهلوا، وآثروا الدعة واستلذوا الراحة، ثم تصدروا في المجالس قبل الحين الذي يستحقونه، وأخذوا أنفسهم بالطعن على العلم الذي لا يحسنونه، إن تعاطى أحدهم رواية حديث فمن صحف ابتاعها، كفي مؤونة جمعها من غير سماع لها ولا معرفة بحال ناقلها، وإن حفظ شيئاً منها خلط الغث بالسمين، وألحق الصحيح بالسقيم، وإن قلب عليه إسناد خبر أو سئل عن علة تتعلق بآثر؛ تحير واختلط وعبث بلحيته وامتنحط، تورية عن مستور جهالته..."

ثم المنهج المتبع في عمله، فقال: "والواجب على من خصه الله تعالى بهذه المرتبة، وبلغه إلى هذه المنزلة، أن يبذل مجهوده في تتبع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته، وطلبها من مظانها، وحملها عن أهلها، والتفقه بها والنظر في أحكامها، والبحث عن معانيها والتأدب بآدابها، ويصدف عما يقل نفعه وتبعد فائدته، من طلب الشواذ والمنكرات، وتتبع الأباطيل والموضوعات، ويوفي الحديث حقه من الدراسة والحفظ والتهذيب والضبط، ويتميز بما تقتضيه حاله، ويعود عليه زينه وجماله."

ثم ذكر أهداف البحث، فقال: "وأنا أذكر بمشيئة الله تعالى وتوفيقه في هذا الكتاب ما بطالب الحديث حاجة إلى معرفته، وبالمتفقه فاقة إلى حفظه ودراسته، من بيان أصول علم الحديث وشرائطه، وأشرح من مذاهب سلف الرواة والنقلة في ذلك ما يكثر نفعه وتعم فائدته، ويستدل به على فضل المحدثين واجتهادهم في حفظ الدين، ونفيهم تحريف الغالين، وانتحال المبطلين..."

ثم فصل خطة البحث فقال: " ببيان الأصول من الجرح والتعديل، والتصحيح والتعليل، وأقوال الحفاظ في مراعاة الألفاظ، وحكم التدليس والاحتجاج بالمراسيل، والنقل عن أهل الغفلة ومن لا يضبط الرواية، وذكر من يرغب عن السماع منه لسوء مذهبه، والعرض على الراوي، والفرق بين قول «حدثنا» وأخبرنا «وأنبأنا»، وجواز إصلاح اللحن والخطأ في الحديث، ووجوب العمل بأخبار الأحاد، والحجة على من أنكر ذلك، وحكم الرواية على الشك وغلبة الظن، واختلاف الروايات بتغاير العبارات، ومتى يصح سماع الصغير، وما جاء في المناولة وشرائط صحة الإجازة والمكاتبة، وغير ذلك مما يقف عليه من تأمله، ونظر فيه إذا انتهى إليه، وبالله أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل."

من أبرز معالم منهجه في البحث العلمي أيضاً، وهو متوفر في جميع كتبه، توثيق كل ما يذكره من أقوال العلماء، والروايات، وذلك باعتماد تقنية الإسناد، فلا يوجد قول أورده الخطيب من غير إسناد منه إلى قائله ما عدا اجتهاداته، وهذا يعطي البحث قوة وثباتاً متناهية في الدقة والاتقان.

3.5 منهجه في الجانب التربوي:

ونقصد بذلك ما كتبه الخطيب وأفرده بالتصنيف من آداب طلاب العلم، والأخلاق التي ينبغي أن يتصفوا بها، والطرق التي يسلكوها في الطلب، فألف في ذلك جملة من المصنفات، مثل (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)، (اقتضاء العلم للعمل)، (نصيحة أهل الحديث)، (شرف أصحاب الحديث).

وأشمل هذه المصنفات وأكثرها نفعا كتاب (الجامع)، حيث فصل فيه كل الآداب والأخلاق المطلوبة في طالب العلم، يقول محقق الكتاب: "ويأتي كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الذي صنفه بعد كتاب شرف أصحاب الحديث ليتوج العالم والمتعلم بأخلاق الإسلام، كل في حقله ومضماره، ويسر له وسائل العلم والتعليم، ويبين أصول الطلب وآدابه، وأصول التعليم، وأخلاق العلماء المعلمين..."¹

وقد بنى الخطيب كتابه هذا على أصول هي: القرآن والسنة وآثار السلف، وقدم فيه إلى جانب آداب التعلم والتعليم، أصول التدريس والتربية وأدواتها، ومن أمثلة ما تحدث فيه عن السلوك الذي ينبغي أن يكون عليه طلاب العلم، والحديث خصوصاً قوله: "والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدبا، وأشد الخلق تواضعا، وأعظمهم نزاهة وتدينا، وأقلهم طيشا وغضبا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآدابه، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدثين، ومآثر الماضين، فيأخذوا بأجلها وأحسنها، ويصدفوا عن أرذلها وأدونها..."²

ومن الأصول التربوية التي نص عليها في كتابه وجوب إخلاص النية في طلب العلم، فلا يكتفي الطالب بالسماع والتدوين ومجالسة العلماء بل أهم خطوة في الطلب هي وجود الإخلاص في ذلك، وإلا لن يجد الطالب ثمرة ذلك في علمه وفي تعليمه للناس، ويكون سببا لانحرافه عن المقصد وما ينجر عن ذلك من الآفات، حيث قال: "يجب على طالب الحديث أن يخلص نيته في طلبه، ويكون قصده بذلك وجه الله سبحانه.... وليتق المفاخرة والمباهاة به، وأن يكون قصده في طلب الحديث نيل الرئاسة واتخاذ الأتباع وعقد المجالس، فإن الآفة الداخلة على العلماء أكثرها من هذا الوجه..."³

ومن الأصول التربوية أيضاً التي وضعها في كتابه؛ وجوب العمل بما علم، ولا يكون مجرد وعاء للعلم، بل أن ينوي ابتداء العمل بما تعلم قبل تعليمه للناس، فقال: "وليجعل حفظه للحديث حفظ رعاية، لا حفظ رواية، فإن رواة العلوم كثير، ورعايتها قليل، ورب حاضر كالعائب وعالم كالجاهل، وحامل للحديث ليس معه منه شيء، إذ كان في اطراحه لحكمه بمنزلة الذهاب عن معرفته وعلمه..."⁴

¹ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تح محمد عجاج الخطيب، 73/1.

² - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي 78/1.

³ - المصدر نفسه، 80/1 - 85.

⁴ - المصدر نفسه، 87/1.

ومن الأصول التربوية أيضا التي تحدث عنها، وجوب اهتمام طالب العلم بهندامه وأخذ زينته حال الطلب وحال التحديث، والانتباه لمظهره كونه له دور في مخاطبة الآخرين والتأثير فيهم، سواء الأتباع أو المخالفين، وهذا من بعد نظره رحمه الله، حيث قال: " ينبغي للمحدث أن يكون في حال روايته على أكمل هيئته، وأفضل زينته، ويتعاهد نفسه قبل ذلك بإصلاح أموره التي تجمله عند الحاضرين من الموافقين والمخالفين".¹

ومن الأصول التربوية أيضا التي أشار إليها الخطيب قوله بمراعاة قدرات الطلاب، فلا ينبغي تحديثهم وتعليمهم في وقت فتورهم، فإن ذلك مدعاة لعدم الاستيعاب، وهذه لفظة تربوية بيداغوجية، مهمة جدا في التحصيل العلمي، حيث قال: " كراهة التحديث لمن عارضه الكسل والفتور: حق الفائدة أن لا تساق إلا إلى مبتغيها، ولا تعرض إلا على الراغب فيها، فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع فليست، فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم المستمع".²

4.5 منهجه في الجانب التاريخي:

ويبرز ذلك جليا في كتابه تاريخ بغداد، حيث برز الخطيب كمؤرخ بارع دقيق الملاحظة، متحري الصحة في النقل، لا يكتفي بسرد الوقائع، بل ينقدها نقدا، ليقف على الزائف منها، ونذكر هنا شاهدا واحدا على ذلك مما ذاع عن الخطيب وجعله ناقدا تاريخيا مرموقا، يقول محقق تاريخ بغداد: "ومن هنا جاءت براعة الخطيب في علم التاريخ، تلك البراعة التي شهرته كعالم مؤرخ ناقد، حيث طبق على التاريخ منهج المحدثين النقدي في الاستثبات من النصوص المنقولة ونقد الوثائق التاريخية، وهذا نموذج من كتابه (تاريخ بغداد)... وهذه حادثة أخرى جرت له سنة 447 هـ، أظهر بعض اليهود كتابا بإسقاط النبي ﷺ الجزية عن الخيابة [يعني يهود خيبر] وفيه شهادة الصحابة، فعرضها الوزير أبو القاسم علي وزير الخليفة القائم على أبي بكر الخطيب، فقال: هذا مزور. قيل: من أين قلت هذا؟ قال: فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام الفتح بعد خيبر، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات قبل خيبر بسنتين. فاستحسن الوزير ذلك منه، ولم يقبل منهم ما في هذا الكتاب"

وهذا النقد يدل على سبق علماء المسلمين إلى أدق أصول علم التاريخ التي توصل إليها المؤرخون في هذا العصر وقرروها".³

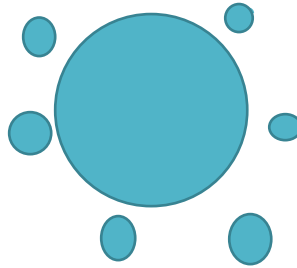
ومن معالم فكره المنهجي في علم التأريخ، إدراكه لأهمية التوثيق، حيث في مقدمة كتاب (تاريخ بغداد) فصل كل التفصيل في وصف مدينة بغداد من حيث موقعها الجغرافي، ومن حيث معالمها التاريخية، ومن حيث هندستها، فذكر الأنهار والجسور، ومدخلها، وأبوابها، وكل جزء فيها تقريبا حتى كأنك تراها، فيقول مثلا في جغرافيا البلدان المحيطة بالعراق: " ذكر أقاليم الأرض السبعة وقسمتها وأن الإقليم الذي فيه بغداد سُرَّها: ذكر علماء الأوائل أن أقاليم الأرض سبعة، وأن الهند رسمتها، فجعلت إقليم بابل وسطها،

¹ - المصدر نفسه، 372/1.

² - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، 1/ 330.

³ - مقدمة كتاب الرحلة في طلب الحديث، تح نور الدين عتر، ص 51.55، باختصار.

وجعلت صفة الأقاليم كأنها حلقة مستديرة يكتنفها ست دوائر على هذه الصفة:



فالدائرة الوسطى هي إقليم بابل، والدوائر الست المحدقة بالدائرة الوسطى، كل دائرة منها إقليم من الأقاليم الستة. فالإقليم الأول منها إقليم بلاد الهند، والإقليم الثاني إقليم الحجاز، والإقليم الثالث إقليم مصر، والإقليم الرابع إقليم بابل، وهو الممثل بالدائرة الوسطى التي اكتنفها سائر الدوائر، وهو أوسط الأقاليم وأعمرها وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذي هو سُرة الدنيا.¹ وذكر في الكتاب من وصف بغداد ما يلي:

- ذكر نهري بغداد: دجلة والفرات.
- المحفوظ من مناقب بغداد.
- ذكر خبر بناء مدينة السلام.
- ذكر خط مدينة المنصور وتحديدها، ومن جعل إليه النظر في ترتيبها.
- خبر بناء الكرخ.
- خبر بناء الرصافة.
- ذكر محالّ مدينة السلام وطاقاتها وسككها ودروبها وأرباضها ومعرفة من نسبت إليه.
- نواحي الجانب الغربي.
- نواحي الجانب الشرقي.
- تسمية مساجد الجانبين.
- ذكر أنهار بغداد الجارية.
- ذكر عدد جسور مدينة السلام.
- ذكر مقدار ذرع جانبي بغداد.
- باب ما ذكر في مقابر بغداد.

وغير ذلك من تفاصيل المدينة الجغرافية والتاريخية في دقة عجيبة.

ومن دقة منهجه التاريخي أيضا اعتماده الإسناد في كل معلومة يذكرها، وهذا منهج دقيق جدا في التوثيق، تفتقر إليه كثير من الكتب التاريخية، يعلق محقق الكتاب بشار عواد على ذلك بقوله: "لقد استعمل الخطيب الإسناد عند إيراد الروايات ما استطاع إلى ذلك

¹ - تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ت ح بشار عواد، 1/ 319.

سبيلا، سواء أكان ينقل من ملاحظات شيوخه، أم من مجموعات العلماء الذين أخذ عنهم، أم من الكتب التي تحملها عن شيوخه والذين بدورهم تحملوها حتى يصل إلى مؤلف الكتاب.

وعلى الرغم من أنه نقل عن مئات المصادر المدونة لمؤلفين سبقوه.... فإنه كان حريصا على أبداً على أن يذكر كل ذلك بأسانيده، إلا في القليل النادر، حيث اضطر إلى النقل من بعض الكتب بصورة مباشرة لعدم حصوله على إذن بروايتها، وهو في هذا الأمر حريص على توثيق دقة المعلومات التي ينقلها، وصحتها بانتقاء النسخ التي بخطوط العلماء، سواء أكانت من مؤلفاتهم أم من مؤلفات غيرهم، نحو قوله مثلاً: "قرأت بخط أبي القاسم بن الثلاث... وهكذا رأيته بخط الدارقطني مضبوطاً"¹

ومن معالم المنهج التاريخي عنده أيضاً، دقة نقل المعلومة، حيث يحرص على النقل الحرفي للنص لا الرواية بالمعنى إمعاناً في الأمانة العلمية حتى لا يحرف كلام القائل وإن كان ظاهر المعنى، ثم ينبه على الأخطاء إن وجدت في النص المنقول في الهامش أو في الجانب بعيداً عن النص الأصلي، وهذه فضيلة علمية تحسب للخطيب، حيث اقل عنه محقق الكتاب: "فكان الخطيب ممن عني بالنقل الحرفي والمحافظة التامة على النص عند نقله وإن كان فيه شيء من الغلط العلمي أو اللغوي أو النحوي.... وقد تخلص الخطيب من أخطاء الكتب أو الأصول التي ينقل منها بأن ينقلها كما هي ثم يضرب على الاسم أو اللفظة الخطأ، وكتابه (تاريخ مدينة السلام) مليء بمثل هذا الصنيع..²"

ويوجد كثير من المعالم المنهجية في فكر الخطيب المؤرخ في سفره العظيم هذا تحتاج إلى دراسات موسعة لتحصيلها.

6. خاتمة:

فهذه بعض معالم الفكر المنهجي عند الخطيب البغدادي، تنم عن المكانة العلمية والفكرية المرموقة التي بلغها، وأهلهته إلى أن يكون نقطة تحول في مسار علوم الحديث، ويكون مرجعاً محورياً لكل العلماء بعد في هذا الفن. حيث وقفنا على التنوع المعرفي عند الخطيب، وعلو كعبه في علوم الحديث علماً ومنهجاً، في أصول الفقه، في التاريخ، في الأدب والرقائق، ولمسنا معالم منهجه في كل تلك العلوم، حيث كان متحريراً دقيقاً ناقدًا، مريباً، مؤرخاً مستوثقاً. والموضوع يقتضي مزيداً من التحري والبحث في هاته الشخصية للوقوف على جوانب أخرى من علمها وفكرها، نظراً لكثرة مصنفاته وكتبه، وتنوعها.

7. قائمة المصادر والمراجع:

- 1- مقاييس نقد متون السنة، مسفر غرم الله الدميني، الرياض، الطبعة الأولى، 1984م.
- 2- مصطلح التاريخ، أسد رستم، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015م.
- 3- البداية والنهاية، ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر)، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2001م.
- 4- تذكرة الحفاظ، الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله)، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1998م.
- 5- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين)، تح محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1413هـ.

¹ - مقدمة تاريخ بغداد، بقلم بشار عاود، 88/1.

² - المصدر نفسه، 89/1.

- 6- الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م.
- 7- شرف أصحاب الحديث، الخطيب البغدادي، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996م.
- 8- الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث، محمود الطحان، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.
- 9- النكت على كتاب ابن الصلاح، ابن حجر العسقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي)، تح ربيع بن هادي عمير المدخلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى، 1984م.
- 10- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تح محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1996م.
- 11- الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة، الخطيب البغدادي، تح عز الدين علي السيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر الطبعة: الثالثة، 1997م.
- 12- نصيحة أهل الحديث، الخطيب البغدادي، تح عبد الكريم أحمد الوريكات، مكتبة المنار، الزرقاء ط الأولى، 1408هـ.
- 13- الرحلة في طلب الحديث، الخطيب البغدادي، تح نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1975م.
- 14- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى، 2002م.
- 15- اقتضاء العلم للعمل، الخطيب البغدادي، تح محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985م.
- 16- الفصل للوصول المدرج في النقل، الخطيب البغدادي، تح محمد بن مطر الزهراني، دار المحجرة، الرياض، ط الأولى، 1997م.
- 17- الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، تح عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى، 1996م.
- 18- تلخيص المتشابه في الرسم، الخطيب البغدادي، تح سكينه الشهابي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 1985م.